

تاريخ محمد علي باشا

تابع ما قبله

لما استتب الامر لمحمد علي باشا في الديار المصرية ولم يبق له منازع قوي يخشى شره بعد نكبة المماليك وجه تنابته الى استرضاء الدولة فاحمد لها ثورة الوهاية في الحجاز وساعدها علي اخاد ثورة اليونان . وكان يعلم ان ذلك كله لا يكفيها بل قد تعزله في اية ساعة ارادت وتولي مصر من يدفع لها أكثر منه وانه لا بد له من ان يعدد المعدات الحربية لماناوتها اذا تصدت له وهذه المعدات من جنود واسلحة وسفن حربية لا تقوم الا بالمال الوافر فتصرف في جمعه علي طرق شتى حتى لم يعد في الامكان ان تزداد الضرائب عما صارت اليه فحوّل عنايته الي اصلاح الزراعة والصناعة والتجارة لكي يزيد ريع البلاد ودخله منها لانيها اصحت ملكاً له والى افتتاح السودان لاستخراج الذهب من مناجم وتجنيد الجنود من اهاليه والتخلص من الارنؤود الذين صار يخشى شرهم والى تنظيم الجنود المصرية علي حسب الطرق الجديدة لكي يسهل عليهم مصادمة جنود الدولة اذا دعت الحال الي ذلك . حتى اذا قوي ساعده خرج علي الدولة ففزا سورية وفتح مدنها عنوة وتكفل بالجيوش العثمانية في معارك كثيرة كما سيجي . وكاد يصل الي عاصمة السلطنة . ولولا الدول الاوربية ولا سيما انكلترا لكانت السلطنة العثمانية علي غير ما هي عليه الآن وسنشرح هذه الامور باوجز عبارة

اخمد ثورة الوهاية

نشرنا في هذا الجزء فصلاً آخر يبين فيه اصل الوهاية وتحوّلهم من الدعوة الدينية المحضة الي الغرض السياسي . وقد همّ الدولة العلية امرهم لثلاثا تقوم في بلاد العرب خلافة عربية تنازعها الملك ولأن اشراف مكة رأوا ان امرهم صائر الي العدم اذا استفحل امر الوهاية فلم ينفكوا عن الاستنصار بالدولة عليهم مع ما كان فيهم من الاضطراب الداخلي بقيام الانكشارية علي السلاطين وقتلهم . فاستعانت بمحمد علي علي الوهاية فكفها شرهم ولكن بمد ان افنى في حروبهم بدرات الاموال وسفك دماء الوف من الرجال . وقد سير عليهم ثلاث حملات الحملة الاولى بقيادة ابنه طوسون اوفدها سنة ١٨١١ وكان الشريف غالب امير مكة يكاتب محمد علي ويظهر له النصيح والصدقة ويعدّه بنصرة عساكره متي وصلت الي الحجاز . قال الجبرتي انه كان يتناقض للعثماني والوهايي في وقت واحد لانه كان يخاف الوهايي فيقول له انه معه علي المهود التي عاهده عليها من ترك الظلم واجتئاب البدع وكان يميل الي العثمانيين لكونه

على طريقتهم . ووصل جنود هذه الحملة الى قلعة ينبع وامتسكوها عنوة ونهبوا كل ما كان فيها من الودائع والاموال والاثمة والبن وقتلوا الرجال وسبوا النساء والبنات وبأشوهن ووصل المشرون بذلك الى القاهرة فضربت المدافع من القلعة وطاف المشرون على بيوت الاعيان ليأخذوا منهم البقايش وارسلوا بتلك البشارة شخصاً الى اسلابول يشرون اهل الدولة وسلطان الاسلام باول فتح حصل

وسارت الجنود المصرية من ينبع الى ان وصلت الى الصفراء والجديدة والارض هناك جبلية وكان العرب قد كانوا لها فيها فهزموها شرمزية فهربت من وجوههم لا يلوي اولها على آخرها ولجأ بعضها الى البريك وبعضها الى ينبع وبعضها الى المويخ وهي اظن العرب جادين في انزها ولا احد يتبعها وعاد كثيرون منها ومن زعمائها الى مصر . قال الجبرتي "ولقيت بعض اكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع فقال لي اني لنا بالنصر واكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يدين بدين ولا يتخلى مذهباً وصحبنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضنا اذان ولا تقام فيديريضة . والقوم (الوهاية) اذا دخل الوقت اذن المؤذن فينتظمون صفوا خلف امام واحد يخشع وخضوع واذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة اذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتقدم طائفة للعرب وتأسخ الاخرى للصلاة ويتادون في معسكرهم هلم الى حرب المشركين المستيحيين الزنا الشاربين الخمر التاركين الصلاة الاكلين الربا القاتلين الاتس المستجلين المحرمات "

وبلغ شريف مكة ما حل بالجنود المصرية عند الصفراء والجديدة فكانت محمد علي وبين له من اين تؤكل الكتف وذلك ان الذين هزموا الجنود المصرية هم عرب حرب والصفراء وهم مجهودون والوهاية لا يعطونهم شيئاً ويقولون لم قاتلوا عن دينكم وبلادكم فاذا بذلتهم الاموال وانذقتهم عليهم الانعام صاروا معكم وملككم البلاد . نجد محمد علي في جمع الاموال باي وجه كان وارسلها صناديق محملة وجعل يرسل تجريدة بعد تجريدة الى ينبع وقصد اعوانة شيخ قبيلة حرب ولم يزلوا به حتى وانقمهم على غرضهم فاعطوه مئة الف فرانسه عدا الخلع والفراء وشالات الكشمير واعطوا كذلك بقية شيوخ العرب فسبلوا عليهم الاستيلاء على المدينة المنورة ثم على مكة وجدة . وبلغ الخبر محمد علي فانرج عنه ثم سار بنفسه الى الحجاز لكي يقوى جنوده على فخر الوهاية ولعله اراد ايضاً ان يجد سبيلاً لامتلاك تلك البلاد حاسباً انه اذا اتى بصاحب الحرمين الشريفين رسخت في الولاية قدمه وانتشرت في الاقطار مهاجرة واحجمت الدولة العلية عن مصادرته . واخذ معه جماعة من الضباط الاوربيين ليدريهم جنوده .

وكان زوج اخت شريف مكة قد خرج الى الوهاية وانتصر لم فأخذ اسيراً ووضع الشريف الاعلال في عنقه وارسله الى الاستانة فاسقط في يد الامير سعود امير الوهاية وارسل بقتديته بالمال وطلب الصلح من محمد علي وشريف مكة فاجيب ان الصلح لا يتم ما لم يدفع كل ما اتفق على الجنود من ابتداء الحرب الى ذلك الحين ويرد كل ما غنم من الحجرة الشريفة ويدفع قيمة كل ما تجزأ بسببه

ثم ان محمد علي قبض على شريف مكة غيلة وعلى اولاده وارسلهم الى جدة ومنها الى مصر واستولى على اموالهم وكنوزهم وهي وافرة جداً وفيها سجنات من الجوهر النفيس وامر الشريف يحيى بن الشريف سرور بدلاً من عمه لكن عمه لم يقع موقع الرضي عند رجال الدولة العلية لانهم اوجسوا منه بشراً فارسلوا اليه ليرد الشريف الى مكة ويرد اليه ما اخذه منه من الاموال والذخائر. وعاد محمد علي الى مصر بفترة لانه بلغه ان خزنداره لطيف باشا عاد من الاستانة ومعه فرمان الولاية لنفسه وكان قد ارسله اليها ليخبر فوزو على الوهاية

وتوفي الامير سعود امير الوهاية وخلفه ابنه عبد الله وكان ضعيف الراي لين العريكة يكره الحرب وسفك الدماء فارسل الى طوسون باشا يعرض عليه الطاعة وتم الصلح على ان يحل طوسون باشا مدينة الدرعية عاصمة بلاد نجد وهي عاصمة الوهايين ويرد الوهايون ما اخذوه من الحلي والجواهر من الحجرة الشريفة ولا سيما الماسة المعروفة بالكوكب الذي التي زنتها مئة وثلاثون قيراطاً. وجاء نقر من الوهاية الى القطر المصري حينئذ والتقى الخبرتي باثنين منهم وقال انه وجد منهما انساناً وطلاقة لسان واطلاقاً وتفصيلاً ومعرفة بالاخبار والنوادر ولها من التواضع وتهذيب الاخلاق وحسن الادب في الخطاب والتفقه في الدين واستحضار الثروع الفقهية واختلاف المذاهب. وانهما دخلا الجامع الازهر وسألا عن اهل مذهب الامام احمد بن حنبل وعن الكتب الفقهية المصنفة في مذهبه فقيل لها ان اهل هذا المذهب انقرضوا من ارض مصر. واشترى نسخة من كتب التفسير والحديث مثل الخازن والكشاف والبغوي والكتب الستة المجمع على صحتها

ولم يرض محمد علي بهذا الصلح لانه لم يتله ما كان يتنيه من بلاد العرب فارسل ابنه الاكبر ابراهيم باشا لتأديب الوهاية وعاد طوسون باشا الى مصر واصيب بالطاعون وتوفي به. اما ابراهيم باشا فانه ابى بالوهاية وفتح مدنهم ومعانلهم فسلبوا له واتي بامرهم عبد الله الى مصر ليسير منها الى الاستانة فقابله محمد علي بالباشنة وقام له اكراماً واجلسه الى جانبه وحادثه وقال له ما هذه المطاولة فقال الحرب سجال فقال محمد علي وكيف رأيت ابراهيم باشا

قال بندي الخمة وما نصّر حتى كان ما قدره المولى . وكان معه صندوق صغير سأله محمد علي عما فيه فقال هذا ما اخذه ابي من الحجرة اتيت به لآخذه الى السلطان وفتحها فاذا فيه ثلاثة مصاحف ونحو ثلثثة حبة من اللؤلؤ الكبير وحبة زمرد كبيرة . فقال له محمد علي ان اباك اخذ من الحجرة اشياء كثيرة غير هذه فقال هذا الذي وجدته عند ابي فانه لم يستاصل كل ما كان في الحجرة لنفسه بل اخذ منه كبار العرب واهل المدينة واغوات الحرم وشريف مكة . فقال محمد علي هذا صحيح وقد وجدنا عند الشريف اشياء من ذلك ووصل الامير عبد الله الى الاسنانة فطافوا به في شوارعها ثلاثة ايام ثم قطعوا رأسه وزالت به شوكة الوهاية

فتح السودان

كان محمد علي يسمع عن حروب نبليون وعن مهارة الجنود المنظمة ولتوق نفسه الى تنظيم جنوده وحاول ذلك غير مرة فلم يستطع لان الجنود التي عنده من الارنوود والدالاة والمغاربة كانت تتور عليه وتضطره الى العدول عن رأيه فلما عاد من الحجاز وكان قد استخدم بعض الضباط الفرنسيين صمم على تنظيم جنوده بواسطتهم فثار رؤساء الجنود عليه وآلمروا على التفتك به واقبى واحد منهم سرهم فاحناط محمد علي لذلك ولما رأوا ان مكيدتهم عرفت لم يسمهم الرجوع عن عزمهم لانه لا بد له من الانتقام منهم على كل حال فاجمعوا على ان يتفرقوا في شوارع القاهرة ويعيشوا فيها فسادا حتى يتألب حولهم الرعاع وتشتد الفتنة فعملوا ولكن دارت الدائرة عليهم . ورأى محمد علي حينئذ ان لا بد له من ارسال فريق كبير من الجنود غير المنظمة من البلاد حتى يتيسر له تنظيم البقية وكان قد سمع عن غنى السودان ورأى التبر يوثق به من سنار وزين له بعضهم سهولة الاستيلاء عليها وتجنيد الجنود منها فبعث اليها حملة عقد لواءها لابنه الاصغر اسمعيل باشا وكان قد علم جنودها بعض الفنون الحربية بارشاد الكولونيل سڤ Sèves الفرنسي ياور الجنرال ناي وهو الذي سمي بعدئذ سليمان باشا الفرنسي فسهل عليها الفوز على السودانيين . وارسل حملة أخرى عقد لواء لصهره محمد بك الدقردار بعث بها لفتح كردوفان . وفتح اسمعيل باشا بلاد التوبة بعضها سنا وبعضها حربا وظل سائرا الى ان وصل الخرطوم في نحو عشرة اشهر وسار منها فاصدا سنار وكان يلاقي بعض الصعاب في طريقه لان الممالك الذين فرّوا من القطر المصري الى بلاد السودان اخذوا معهم بعض البنادق والمدافع وعلموا السودانيين كيفية الحرب والصدام . ودخل اسمعيل باشا سنار من غير حرب لان ملكها بلغه ما حلّ بنهره فلاقاه طائفا فآثره عليها ولكن وقع المرض والدوسنطاريا في جيش اسمعيل

باشا فمات أكثره وبلغ محمد علي ذلك فبعث بابن ابراهيم باشا لكي يتخذ البقية الباقية من جنود اسمعيل وينظم البلاد ويتم فتحها الى منابع النيل في فرعيه الابيض والازرق . واصيب ابراهيم باشا بالدوسنطاريا فعاد ادراجه الى مصر وتولي ياوره طوسن بك قيادة جيشه .
واما محمد بك الدقردار فالتقى بجنود كردوفان في باره وهزمهم واشحن فيهم قتلاً واسراً لانهم كانوا مسلحين بالسيوف والحراب واما جنوده فكانوا مسلحين بالبنادق والمدافع . ثم بلغه ان الملك نمرأ ملك شندي اغتال اسمعيل باشا فعاد الى التمتة واشحن في اهله وذلك ان اسمعيل باشا عاد الى شندي لانه بلغه ان ملكها جاهر بالعصيان فلما وصلها استجصر اليه وعنفه وفرض عليه جزية فاحشة فاضمرها له ودعاه الى وليمة حو ورجاله وسقام كثيراً من المسكر وكان قد جمع قسماً وهشياً حول مكان الوليمة فاضرم فيه النار ووقف هو ورجاله بسيوفهم حول النار يقتلون من يحاول الفرار منها فمات اسمعيل باشا خنقاً ومات كل الذين معه وانتشر الخبر في السودان فجاهر امراؤه بالعصيان وعاد الدقردار الى شندي كما تقدم فقتل اهل التمتة ووجد ان الملك نمرأ هرب من وجهه فاحرق شندي وضرب في البلاد يقتص من الظارجين عن الطاعة ويحرق المدن ويقتل السكان الى ان وصله الامر من محمد علي بالرجوع الى مصر فرجع اليها وقد دوّخ بلاد السودان ومهدا للولاة الذين جاهاها بعده ولم يجد فيها محمد علي ذهباً كثيراً ولا حجارة كريمة لكنه استفاد من تجارتها ومن الرقيق الذي كان يرد منها . ولم يحسن ولائه ادارتها فبقي اسم الترك عند السودانيين مرادقاً للظلم والقسوة حتى الآن

انحداد ثورة اليونان

وثارت بلاد اليونان تطلب الاستقلال فاستعان الباب العالي عليها بمحمد علي ليشغله عن طلب الاستقلال فخرج عليها ابراهيم باشا بخوفاً ثمانية آلاف من المشاة وغنامته من الفرسان والمدفعية وكان قد استخدم كثيرين من الضباط الفرنسيين والاطاليين لتنظيمهم وكان معه اسطول كبير فيه ثلاثون بارجة واربع حرايقي و١٦ من مراكب النقل التركية و٢٨ من مراكب النقل الاوربيين فعمد الفوز له في كل المعارك تقريباً حتى خيف من انه يستأثر بامتلاك بلاد اليونان ولكن جاءت واقعة تقارينو المشهورة سنة ١٨٢٧ فتلف بها الاسطول المصري والاسطول التركي ثم جاءت معاهدة لندن فخرمته من ثمة حربيه في بلاد اليونان . وارسلت الجنود الفرنسية لاجراء الجنود المصرية من تلك البلاد ولكنه جنا شيئاً آخر وهو ان جنوده تمزقت عن الحروب المنتظمة حتى فازت في المعارك التي وقعت بينها وبين الجنود العثمانية كما سيجي

تعمير البلاد

لا يزيد بتعمير البلاد هنا ترقية اهاليها وتسهيل سبل الكسب لهم وحفظ ما في يدهم من الاموال والمقتنيات كما تفعل الممالك المتقدمة الآن . بل تكثير خيراتها وترويج متاجرها حتى يتال واليها النفع الاكبر منها . هذا هو الغرض الذي كان محمد علي يرمي اليه في ما فعله في البلاد ودليلاً على ذلك انه كان يناظر التجار ويحاول احكار التجارة والاستثمار بالكاسب كلها واذا بلغه ان احداً من الاهالي جمع ثروة طائلة صادرة فيها حتى يتزها منه وقد يتزروحه معها . وتاريخ الجبرتي مملوء من هذه المصادر حتى ان الثروة كانت اكبر بليّة على الناس . والظاهر ان الايام لينت طباعه في اخريات ابامه فصار حليماً رؤوفاً يرأف بالناس ولو اثروا وقد ينعم عليهم بالاموال الطائلة

اما الملوك الذين غرضهم الاول تعمير بلادهم فلا يتصدون للتجارة ولا يناظرون الناس في اعمالهم ولا يصادرون الاغنياء بل يكرمونهم ويحسبونهم من دعائم ملكهم وقد اورد الجبرتي اخباراً كثيرة عما كان محمد علي يفعله في احكار التجارة قال في حوادث سنة ١٢٢٥ هـ انه "سافر الى الاسكندرية لبيع الغلال التي جمعها من البلاد بالفرض التي فرضت على الاهالي فباع الافرنج اكثر من مئتي الف اردب كل اردب بمئة غرش وسعر الاردب في مصر ثمانية عشر غرشاً وهو لم يشتريها ولم تكن عليه بمال بل اخذها من زراعة الفلاحين من اصل ما فرضه عليهم من النظم مع تظنيف الكيل والزامهم بكلفة شيليه واجرة نقله الى المحل الذي يلزمونهم بوضعه فيه واخذ من الافرنج ثمنه اصناف النقود من الذهب الشخصي البندقي والمجر والقرانسه والبضائع من الطوخ والقرمز والقصدير" . فهذه مثلاً الف جنيه وكانها خرجت من جيوب الفلاحين ودخلت جيبه

وقال في حوادث سنة ١٢٣١ هـ "استمر في بناء السفن الكبار والصغار لنقل الغلال من قبلي وبحري الى الاسكندرية لتباع للافرنج الاردب من الحنطة بسة آلاف فصة . وكان اذا استوفى كل المطلوب من الفلاحين وبقي عندهم شيء من الحبوب اخذه منهم وحببه لهم بنصف ثمنه ولا يعطيهم هذا النصف بل يحسبه لهم من اصل المال الذي يطالبون به في العام المقبل . ولرغبته في التجارة انشأ سفناً يبحر الزوم وبحر القنزم واقام له وكلاء في كل الاساكل حتى يبلاد فرنسا وانكلترا ومالطة وازمير وتونس ونابلي والبندقية واليمن والمند واعطى اناساً مقادير عظيمة من الاموال ليسانروا بها ويجلبوا البضائع وجعل لهم الثلث في الربح نظير سفرهم وخدمتهم فمن ذلك انه اعطى للرئيس حسن المحروقي خمسمائة الف فرانس ليسانفها الى المند

ويشتري البضائع الهندية ويأتي بها الى مصر ويشخص آخر ستمائة الف فرانسه وكذلك لمن يذهب الى بيروت وبلاد الشام لشترى الحرير . وعمل في مصر مصانع لتسج القطن والحرير والجنيفس واحكر ذلك وابطل دواليب الصناع واقامهم يشتغلون وينسجون في المناسج التي احدها ويأخذ من ذلك ما يحتاج اليه وما زاد يرميه على التجار وهم يبعونه للناس باغلي ثمن وبلغ ثمن الدرهم من الحرير خمسة وعشرين نصفاً بعد ان كان يباع بنصفين

وقال في مكان آخر انه " اخذ كل ما ورد في مراكب التجار من البضائع على ذمته ثم باهه للتسبيين بما احب من الثمن . وورد من ناحية بلاد الافرنج كثير من البن الافرنجي وحبه اخضر وجرمه اكبر من جرم البن اليمني الذي يأتي الى مصر في مراكب الحجاز فاخذه في حمله ما اخذه في معاوضة الغلال ورماه على باعة البن في مصر بثلاثة وعشرين فرانسه القنطار والتجار يبعونه بالزيادة ويخلطونه مع البن اليمني وهو دون البن اليمني في الطعم واللذة وبينهما فرق ظاهر . " ولخص تلك الاقوال في حوادث سنة ١٢٣٥ حيث قال " ان اسباب الخراب التي نص عليها المتقدمون اجتمعت وتضاعفت في هذه السنين وهي زيادة الخراج واختلال المعاملة وزاد على ذلك احكار جميع الاصناف والاستيلاء على ارزاق الناس فلا تجد مرزوقاً الا من كان في خدمة الدولة متولياً على نوع من انواع الكوس او مباشراً او كاتباً او صانفاً في الصناع المحدثه ولا يخلو من هفوة ينم بها عليه فيحاسب عن مدة استيلائه فيسمع عليه حمله من الاكياس فيلزم بدفعها وربما باع داره ومطاعه فلا يبي بما تأخر عليه فاما يهرب ان امكنه الهرب واما يبق في الحبس هذا اذا كان من ابناء العرب واهالي البلد واما اذا لم يكن منهم فربما سوح او تصدى له من يخفف عنه او يدخله في منصب او شركة فيرتفع ويرجع احسن مما كان "

وهذا ابلغ وصف رأينا للاسلوب العقيم الذي جرى عليه محمد علي في تدمير القطر المصري ولا عجب اذا زالت آثار اعماله النافعة لانها كانت مرتبطة به ومتوقفة عليها فلما زال زالت ولم يبق منها الا ما هو عمومي مثل التربة المسمودية التي اوصل بها الماء الى الاسكندرية وجعلها كافية للملاحة . وسد ابي قير الذي رده به غوائل البحر عن مديرية البحيرة . والقناطر الخيرية وهي وان لم تند في زمانه لكنها افادت في هذا العصر بعد ان قويت وثقت جدرانها فوائده لا تعدر بحال لانه لولاها ما امكن زرع القطن في الوجه البحري ولو لم ينهها هو لبنت في هذا العصر

وكتب المستر باركر الذي كان قنصلاً لانكترا في هذا القطر يصف اشتغال محمد علي

بالتجارة قال لما اتيت هذا القطر كنت احسب ان سموة يرسل الحاصلات الى اوربا لتباع فيها كما يفعل التجار فيكتب الى عميله مثلاً اني مرسل اليك كذا وكذا من القطن في السفينة الفلانية وطية ورقة الشغن فاستم البضاعة بموجبها وادفع اجرة الشغن وبيع البضاعة بالتمن الأحسن وايض صافي الثمن تحت أمري . وظننت انه يمكنني ان اقنع بوغوص ليرسل بعض القطن الى اخي في جنوى لكنني وجدت الامر على غير ذلك فن ابانها عرف بالاخبار ان التجار يخونونه اذا اتدعهم ولذلك فالطريقة الفضلى له ان يأتي بالقطن الى الاسكندرية وبيعه بالمزاد ثم يرسو عليه اعلى سعر ويكون الثمن تقدماً . ثم صار يحتاج الى التقود قبل اوان الموسم لكثرة ما تقتضيه مشروعاته من النفقات فصار يقول للتجار اني اقدم لكم بعد ثلاثة اشهر او اربعة او خمسة او ستة كذا باله من القطن واطلب منكم الآن تسعة اعشار الثمن تقدماً واتعهد بارسال القطن الى عملائكم في اوربا . وقد بلغ من تناظر التجار بعضهم مع بعض ان اوصلت فرنسوي منهم ثمن القطن الى ثلاثة عشر بالاً يدفع نصفها او ثلثها سلفاً والباقي عند التسليم . ويقول الذين ذكرتهم في هذا الموضوع من اصديقائي ان هذا الثمن فاحش وفيه غبن كثير على المشتري . واذا بعث الباشا بالقطن الى التاجر وعلم انه يبقى عنده جانب من الثمن طلب منه ان يرسل اليه بعض الآلات الثمينة او نحو ذلك مما يفوق ثمنه الجانب الباقي من ثمن القطن حتى يكون مديوناً لا دائماً حاسباً ان حماقة تجار اوربا تجعلهم يرسلون ما يطلبه منهم لكي لا يخسروا معاملته

ثم كتب في غرة سبتمبر سنة ١٨٢٩ يصف استعداد محمد علي لمحاربة السلطان قال ان الباشا باذل اقصى جندو في تحصين الثغور البحرية لانه يحسب ان السلطان سيمود اليه ويتاقتله الحساب بعد فراغه من حرب الروس . وعنده الآن خمسون الفاً من الجنود المنظمة وخمسة عشر الفاً من البدو وهو قادر على مناورة السلطان من حيث عدد الجنود وتنظيمها ولكن سلطة السلطان الدينية وان تكن قد ضعفت كثيراً لا تزال ترهبه . وقد سمعنا الآن بمقدمات الصلح بين الاتراك والروس . ثم كتب يقول : طفي النيل سنة ١٨٢٩ فاتفق من المزروعات ما يقدر بثلاثة ملايين من الريالات ولذلك تأخر محمد علي عن مساعدة السلطان على دفع القسط الاول من غرامة الحرب لروسيا ولكنه لم يتأخر عن التأهب بحفاة من ان يقصده السلطان بمكره . وغازلة عقد الصلح بين الدولة والروس لانه اراح السلطان . وقد اتزل في الاسبوع الماضي فرقاطة مملوفاً خمسون مدفعاً بناها له رجل تركي ابي لا يقرأ ولا يكتب . وعنده رجل فرنسوي اسمه ده سريسي وهو الذي يبني سفنه عادة وقد بني له الآن بارجة

محموطاً ١١٠ مدافع ولا يزال بيني ثلاث بوارج أخرى عدا الفرقاطات والكورفتات
 وكتب سنة ١٨٣٠ يقول لم تبقى شبيهة في ان محمد علي ينوي الاغارة على بلاد الشام
 لان الاستعداد لذلك قائم على ساق وقدم . وقد تكلم ابراهيم باشا مع ضباط جيشه وبين لهم
 عزمه على مناوأة الدولة كأنه يريد ان يؤثر في عقولهم استعداداً لهذا الحادث الجلل حتى اذا
 حدث لا يستعظمونه . وتما قاله لهم " ماذا انتفعت انا او انتفعتم انتم من السلطان لو طلبنا منه
 شربة ماء لمنعنا . ونحن كنا قد اكلنا خبز محمد علي وريتنا عنده كاولاد وفضلهم وكرمهم
 وصلنا الى ما صلنا اليه انا وانتم . مصر له اخذها بسيفه ولذلك لا نعرف لنا حاكماً غيره "

وكتب يصف بعض المصانع التي انشأها محمد علي قال لما صرنا على مقربة من رشيد
 التفت الى الشاطئ فاذا انا يجبل من بالات القطن فيه الف وخمسمائة بالة ويجبل آخر من
 اكياس القول يصد عليه السياح فيطلون على المدينة والبلاد المجاورة لعلهم . ورأيت اربعين آلة
 لضرب الارز وقشور ومعملين بديعين لنسج القطن ومعملاً فاخراً لعمل الطرايش المغربية لم
 يستطع الاوربيون ان يناظروه . وفي هذه المعامل ثلاثة آلاف او اربعة آلاف عامل
 لا يساعدهم احد من الاوربيين

وكتب سنة ١٨٣١ يقول ان محمد علي شرع في بناء بارجة محموطاً ١٣٦ مدفماً وستكون
 اكبر بوارج الدنيا طول جسر قاعدتها مثنا قدم وعرض ظهرها نحو ستين قدماً . وقد بلغ قنطه
 هذا العام ١٥٠ الف بالة ففاق محصول الاعوام السالفة وعنده زراعة واسعة من الخشخاش
 لاستخراج الافيون وقد نجحت زراعة شجر التوت لتربية دود الحرير ولا يزال الايطاليون
 يديرون معامل السكر والروم . والمدبقة في رشيد تدبغ من الجلود ما يكفي لاحذية الجنود والحجارة
 وزبدة القول ان محمد علي امتلك الديار المصرية بالحرب والحيلة وجري على الاساليب
 التي كان يجري عليها معاصروه من اهل المشرق وكال خصومه بالكيل الذي كانوا يكيلون له
 به لو تمكنوا منه . ثم سمت نفسه الى توطيد قدمه وتوسيع ملكه فاعد ما استطاع من عدة
 واستخدم ما اتصلت اليه يده من الوسائل لتنظيم الجيوش وعمل الاسلحة وبناء البوارج
 واوجد ما يلزم لذلك من الاموال الطائلة باستغلال البلاد واصلاح زراعتها واخذ كل ما
 امكن اخذه من اهاليها والقبض على ازمة الصناعة والتجارة . وقد اضطره ذلك الى حماية
 الاوربيين وثرغيبهم في الاقامة فيها فروعيت حقوق الناس رويداً رويداً الى انتسخت اساليب
 الجور القديمة . اما الحملة على بلاد الشام وما جاورها فسفرد لها فصلاً خاصاً في الجزء التالي